خصائـــص الأخـــلاق فى الإســـــلام

رؤية مقارنة مع الفلسفات الوضعية

أ.د/محمد السيد الجليند
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية
دار العلوم – جامعة القاهرة

تمهيد :

الإنسان أخلاقى بفطرته :

أجمع المثاليون من علماء الأخلاق ومنهم فلاسفة الإسلام على أن الله تعالى قد خلق الإنسان وزوده بغريزة أخلاقية تسمى البصيرة ، تساعد الإنسان على التفرقة بين الخير والشر فى الأفعال ، والحق والباطل فى الأقوال ، وتعمل على تحصيل النافع للإنسان ودفع الضار عنه ، كما يستطيع بها الإنسان أن يصدر أحكاماً يقيم بها أنواع السلوك المختلفة فيميز بها بين السلوك المنحرف والسلوك السوى المعتدل.

وهذه الغريزة هى الفطرة التى ولد عليها الإنسان ، وبها يواجه عملية الاختيار بين البدائل أو الانتقاء فيحصل على ما يلائم الطبع ويبتعد بها عما ينفره عنه ، ونور هذه البصيرة لا ينطفئ أبداً ، لكنه قد يغيب أو يخبو عند فترات ضعف الضمير أو غيبته ، وسرعان ما يشتعل نورها فيضئ للإنسان جنبات الحياة وذلك عند إحساسه بما يسمى بوخزات الضمير أو يثور عنده إحساس الشعور بالألم والندم عندما يرتكب بعض الجرائم أو الأفعال المخلة بالشرف والأمانة ، ومهما بلغت درجة انحراف الإنسان فى سلوكه فإنه يجد نفسه مضطراً فى بعض الأحيان إلى الاعتراف بحب الخير وتقديس الفضيلة فى ذاتها ، وإن أعوزته الشجاعة إلى الارتفاع إلى مستواها وممارسة السلوك الفاضل ، ومما لا شك فيه أن رؤية أى سلوك هابط أمامنا يثير لدينا نوعاً من الاشمئزاز والنفور وسرعان ما نجد أنفسنا نصدر أحكاماً تلقائية بإدانة هذا السلوك الهابط واستحقاق صاحبة العقاب.

ومن آثار هذه البصيرة الأخلاقية أننا نكره فى أنفسنا عيوبنا الذاتية ، وإذا كنا نبذل كثيراً من الجهد فى تصحيح أخطائنا فإننا سرعان ما نتلمس المعاذير لتبرئه أنفسنا مما قد نحكم عليه بأنه خطأ أو يعتقد الآخرون أنه سلوك سيئ هابط. كما قد نشعر أحياناً بنوع من الخجل والخزى عندما تعرف الجماعة التى يعيش معها الإنسان أنه قد ارتكب جريمة أو خدش وجه الفضيلة بسلوكه الهابط ، وهذا الشعور مصدره الإحساس الداخلى الذى يستمد أساساً من نور هذه البصيرة الفطرية التى زود الله الإنسان بها.

الفطرة والوحى:

والقرآن قد اعتمد على هذه الفطرة فى كثير من الآيات وتأسس خطابه القرآنى على هذا الشعور العام، وذلك الإحساس الذاتى القادر على التمييز بين أنماط السلوك المختلفة ومعرفة الخير من الشر والعدل من الظلم ، كما اعتبره أساساً فى إقامة النظام الخلقى للفرد والجماعة ، واعتمد عليه فى عرض القضايا العامة على المسلمين ، فالرسول يأمر المؤمنين بما سبق أن أمر به جميع الرسل السابقين قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [١] و ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[٢] ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ [٣] ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [٤]﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [٥] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات﴾ [٦] إلى غير ذلك من الآيات التى تخاطب المسلم من جانبه الوجدانى الذى ينبع من الضمير الأخلاقى فى التمييز بين الخير والشر. وإن هذا الشعور عام ومشترك بين جميع الناس فإن القرآن يقدم لنا الواجبات الأساسية التى ترتكز على هذه الفطرة الغريزية على أنها دعوة كل الرسل السابقين ومهمتهم وسبيلهم المستقيم. فلقد أمر الله كل الرسل بإقامة ميزان العدل والقسط ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [٧] وأمروا أن يكسبوا رزقهم من الحلال ويعملوا صالحاً ، وليس من الصدفة العارضة أن محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى ما سبق أن دعا إليه جميع الرسل السابقين ولكن هذا يبين لنا أن هناك قدراً مشتركاً بين دعوة كل الرسل ، وهذا القدر يتمثل أساساً فى المبادئ الفطرية العامة التى لا تخضع لعوامل البيئة والثقافة ، فالرسل جميعاً أمروا بالأكل من الطيب وفعل الخيرات. والأمر بالمعروف والنهى عن الفحشاء والمنكر ، والقرآن لا ينقل لنا مبدأ أخلاقياً دعا إليه هذا الرسول أو ذاك إلا ويشير إليه فى موضع آخر على أنه واجب تلتزم به الجماعة الإسلامية. ولهذا قال سبحانه ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٨] ويقول فى مخاطبة الرسول ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [١] .

---

[1] الأعراف آية [١٥٧].

[٢] النحل آية [٩٠].

[٣] الأعراف آية [٢٩].

[٤] الأعراف آية [٣٢].

[٥] المؤمنون آية [٥١].

[٦] الأنبياء آية [٧٣].

[٧] الحديد آية [٢٥].

[٨] النساء آية [٢٦].

ولو نظرنا فى المبادئ الأخلاقية الكبرى التى جاءت بها التوراة والإنجيل وقارناها بما جاء فى القرآن من ذلك فإننا نجد أن القواعد الأساسية الأخلاقية التى دعا إليها جميع الأنبياء واحدة كالعدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإحسان إلى الغير والصدق والأمانة وغير ذلك من الأمور التى تمثل دعائم البناء الخلاقى فى دعوة كل رسول [٢] وهى كلها أمور تميل إليها الفطرة السليمة وتسعى إلى تحقيقها لأنها تلائم ما طبعت عليه أزلاً من معرفة الحق ومحبة الخير.

والله تعالى قد منح الإنسان هذه الفطرة ليتمكن بها من تحقيق مصالحه وما فيه من نفعه ودفع ما يضره ، وأعانه على ذلك بأسباب ظاهرة وباطنة ، ومهد له الطريق ثم أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان ما غمض وتفصيل ما أجمل ، وأزال عنه كل علة يحتج بها على الله. لأن كثيراً مما ينفع الإنسان أو يضره لا علم له بتفصيله إلا عن طريق الوحى والرسل ، فهناك إذن عاملان يكمل أحدهما الآخر. عامل الفطرة وعامل الشريعة. والعامل الأول (ألفطرة) هو الذى يجعل القلب متفتحاً لتقبل العامل الثانى، لأن ذلك من مقتضاها . فالله قد فطر عباده على معرفة كل حق ومحبة الخير ، وأول ذلك معرفته سبحانه ومحبته وتأليهه والإقرار بربوبيته ، لأن معرفته سبحانه بداية كل خير وحق وأصل لذلك. قال صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمسجانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم قوله تعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها) [٣] . وفى صحيح مسلم (خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا ما لم أنزل به سلطاناً) [٤] فالرسول يخبر أن كل نفس مفطورة على الإقرار لله بالإلهية ومحبته وعبادته ، وأن هذه الفطرة عامة فى كل من يخضع لله بالعبودية. والعبودية هنا صفة كونية تعم الجميع ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [٥] والفطرة إذا فسدت أو تحولت عن الحق أو ضلت سبيلها عن معرفة الخير فإن ذلك يكون لعارض طارئ عليها من خارج ذاتها كما أشار صلى الله عليه وسلم : (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وكما أخبر سبحانه (فاجتالهم الشياطين) وهذا يتمثل فى عامل الشهوة والغفلة أو الجهل والهوى ، فالغفلة والشهوة أصل من أصول الشر فى الإنسان. والهوى لا يستقل وحده كدافع على ارتكاب الشر بل لابد معه من عامل آخر كالجهل. وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً أن ذلك لا يضره ضرراً راجحاً انصرفت عنه نفسه بالطبع استجابة للفطرة ، لأن الله طبعه على حب النافع فلا يفعل الإنسان ما يجزم بأنه ضرر راجح. وإذا فعله كان ذلك لفساد فطرته وجهله.

---

[١] الأنعام [٩٠].

[٢] أنظر : مدخل إلى القرآن الكريم. د. محمد عبد الله دراز.

[٣] ورد هذا الحديث فى البخارى (كتاب الجنائز) باب إذا أسلم الصبى فمات ١٦٨/٢. باب ما قيل فى أطفال المشركين ١٢٥/٢ ؛ ومسلم (كتاب القدر) ؛ والترمذى (كتاب القدر) ، ابن حنبل ٢٣٣/٢ .

[٤] أورده مسلم فى (كتاب الجنة) باب رقم ٦٣ ، ابن حنبل ١٥٣/٤.

[٥] مريم آية [٣٩].

ولهذا فإن البلاء العظيم يكون من الشيطان وليس من مجرد النفس ، فإنه يزين لها فعل السيئة وارتكاب الشر ويحدثها بما فى ذلك من المحاسن التى يزينها للإنسان ؛ كما فعل إبليس بآدم وحواء. فقال : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سوآتهما ﴾ [1] ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [2] .

[1] الأعراف آية [١٢٠ ، ١٢١].

[2] الزخرف آية [٣٦].

بين الأخلاق والدين

من أهم ما يميز الأخلاق الإسلامية ارتباطها الوثيق بالدين في أوامره ونواهيه، فما أمر الشرع إلا بما هو أخلاقي وما نهي إلا عما هو قبيح، ومن هذه العلاقة تستمد سلطة الإلزام الخلقي قوتها من سلطة الدين وقوة تأثيره في القلب الذى يمتلئ بنور الإيمان، فينعكس ذلك علي سلوك الأفراد التزاما بالقيم الخلقية وتنفيذ للأوامر الدينية، وليس غريبا أن نقرأ في كتب المعاجم اللغوية أن من بين معاني لفظ الأخلاق "الدين" وفي ضوء هذا المعني نجد كثيرا من علماء التفسير يتأولون قوله تعالي: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) بمعني إنك علي دين عظيم، كما روي ذلك عن ابن عباس:

ومما يؤكد هذا الارتباط والتكامل ما جاء في الحديث الشريف من قوله صلي الله عليه وسلم: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق [1] ، فلفظ الحديث جاء في عبارة تفيد معني الحصر أو القصر، بمعني حصر وظيفة الرسول وبعثته في أنه جاء لكي يتمم مكارم الأخلاق.

وهذا الحديث الشريف يرشدنا إلي أمرين مهمين جدا:

الأول: أن الإنسان جاء إلي هذه الحياة وهو مزود بالفطرة القابلة والمستعدة لتقبل كل خلق حسن وخير، وترفض كل خلق ردئ ومسيء، وأن هذه الفطرة هي الركيزة الأساسية التي تجعل الإنسان يستعد لأن ينهض متساميا بنفسه عن كل خلق رديء ربما يكون قد اكتسبه من البيئة التي يعيش فيها، إلي الخلق الحسن السني، ويظل هكذا في حالة ترقى وسمو إلي ما هو أفضل دائما طلبا للكمال والتزود بالأخلاق الفاضلة، ولعل من هنا نجد الإنسان الذي يرتكب جريمة أو يخدش وجه الفضيلة غير راض عن نفسه دائما، وهو في حالة عدم استقرار نفسي وإن شئت فقل في حالة خصام مع نفسه؛ لأنه حين يرتكب فعلا غير أخلاقي فإنه يتناقض بفعله هذا مع فطرته السليمة التي جبلت علي محبة الخير وكراهية الشر.

ولعلك تلاحظ ذلك بينك وبين نفسك، فأنت حين تكذب مثلا فإن اللسان يرتكب الكذب وقد يتكرر ذلك منه مرات ومرات في الوقت الذى يكون القلب غير راض عن ذلك الفعل وموقن تماما أنك تكذب لو أضفت إلي كذبك جرما أخر فأقسمت بالإيمان المغلطة أنك صادق. فالقلب يكون في واد واللسان في واد أخر؛ لأن القلب يتعامل بلغة الفطرة السليمة بينما يتعامل اللسان بلغة الجوارح التي قد يخدعها الواقع وشهوات النفس فترتكب ما لا يرضي عنه القلب ويناقض منطق الفطرة، خاصة إن كان يحقق لصاحبة منفعة عاجلة، وهذا الإحساس بالتناقض الداخلي يحسه كل فرد بينه وبين نفسه حين يرتكب فعلا غير أخلاقي.

الأمر الثاني: إن هذا الحديث يرشدنا إلي أن الأوامر والنواهي الدينية بمستوياتها المتعددة تحمل في مضمونها المعني الأخلاقي الذي يتصل مباشرة بإصلاح الفرد والمجتمع علي سواء، وإن الشرع قد ألبس هذا المعني الأخلاقي حكما شرعيا ليستمد منه قوة الإلزام به للمسلم وربطه بالعقيدة الإسلامية ربطا

---

[1] انظر مجمع الزوائد للهيثمى : ٨ / ٩ ؛ لطائف المعارف ، ص ٣٠٥.

محكما، ليعلم المسلم من ذلك أن إهمال الفعل الأخلاقي هو في صميمه إهمال للأمر الديني وتفريط فيه ومن هنا جاءت الأوامر الأخلاقية التي أجمعت عليها الأديان السماوية ونادت بها المذاهب الأخلاقية الكبرى في صيغة الأوامر الإلهية لتكتسب قوتها في الإلزام من قوة إيمان صاحبها وامتلاء قلبه بحب الله وطاعته. قال تعالي:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (سورة النحل: ٩٠).

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (النحل: ٩١).

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (النساء: ٥٧) ويأمرنا بالعدل مع الأعداء كما أمرنا به مع الأصدقاء قال تعالي: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة: ٩).

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا) (الأنعام: ١٥٣).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة: ١٢٠).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (الحجرات: ١١).

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) (سورة الهمزة: ١).

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) (المطففين:١-٣)

(وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف: ٥٦).

فكل هذه أوامر أخلاقية جاءت في صيغ دينية لتكتسب قوة الالتزام بها من ربطها بالعقيدة الإسلامية وبكمال الإيمان،وبأركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة، فيزداد الإيمان بكمال الالتزام بالأوامر الأخلاقية إذا اقترن بها نية القربى إلي الله وينقص بنقصان ذلك، فتجد القرآن الكريم يأمر المسلم بالصلاة أو الصيام أو العبادة المطلقة، ثم يردفها بمفردات الأوامر الأخلاقية ليربط المسلم أهمية الأخلاق بأهمية الدين في نفسه؛ وبأهمية أركان الإسلام التي جاء الأمر الأخلاقي مقترنا بها. قال تعالي: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (النساء: ٣٦).

(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) (المدثر: ٤٢- ٤٥).

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) (سورة الماعون: ١-٣).

ونجد في السنة النبوية كثيرا من الأحاديث التي تربط الأوامر الأخلاقية بالعقيدة، لتدل علي كمال الإيمان قال صلي الله عليه وسلم.

عدلت شهادة الزور الشرك بالله. [١]

المؤمن لا يكذب. [٢]

من غشنا فليس منا. [٣]

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. [٤]

الإيمان حسن الخلق.

والله لا يؤمن (قالها ثلاث) قيل من هو يا رسول الله؟ قال: من بات شبعانا وجاره جائع وهو يعلم [٥] ، فانظر كيف ربط الحديث الشريف بين كمال الإيمان والفعل الأخلاقي.

وعليك أن تقرأ وصايا لقمان لابنه وهو يعظه لتعلم كيف قرن القرآن الكريم أهمية الأوامر الأخلاقية وكيف ربطها بالاعتقاد وأصوله قال تعالي: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (لقمان: ١٢-١٨) ثم زادها تفصيلا ووضوحا في ربط الأخلاق بالعبادة لتكتسب أهميتها وضرورة الالتزام بها في أول سورة المؤمنون قال تعالي: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) (المؤمنون: ١-٨).

ولقد جسد القرآن الكريم الشخصية الأخلاقية في صفات عباد الرحمن التي ذكرها في سورة الفرقان لنعلم منها كيف كانت هذه الشمائل الأخلاقية سببا في اكتساب هذه الصفة الدينية العظيمة (عباد الرحمن) قال تعالي: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ

---

[١] الترغيب اولترهيب للمنذرى ١٦٦/٢ وانظر اللؤلؤ والمرجان حديث رقم (٥٤ ، ٥٥) .

[٢] انظر الترغيب والترهيب ٢٨/٤ .

[٣] الترغيب والترهيب ٢٢/٣ ، ورواه مسلم.

[٤] متفق عليه انظر اللؤلؤ والمرجان ١٠/١ حديث رقم (٢٨).

[٥] الترغيب والترهيب ٢٢/٣ .

غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) (الفرقان: ٦٣– ٧٢).

واقرأ كذلك كيف قرن القرآن الأوامر الأخلاقية بالإيمان وربطها بالعقيدة في قوله تعالي: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (فصلت: ٢٩–٣٤).

واقرأ كيف قرن القرآن الكريم النهي عن سوء الخلق والأفعال المنكرة بالنهي عن الشرك بالله. قال تعالي:

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأنعام: ١٥١–١٥٣).

وهذا قد تكرر في القرآن الكريم كثيرا حيث تجد الأوامر الأخلاقية تلبس في القرآن الكريم ثوب الأوامر الدينية لنتبين من ذلك قداسة الأخلاق في الإسلام وأنها المنبع الوحيد لصلاح أحوال الأمة أفرادا وجماعات وإن رسل الله جميعا حملوا عبء هذه الأمانة ليبلغوها للناس في صيغة الأمر الإلهي فقرنوها بالجزاء الأخروي عند الله ثوابا أو عقابا وجعل مسئولية التطبيق لهذه المبادئ معلقة برقاب المسلمين – كل علي حسب طاعته – وإن إهمالها أو ضياعها من المجتمع هو المقدمة الضرورية لانهيار المجتمع كله.

ولا نريد أن نستطرد في ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي جعلت من الالتزام الأخلاقي معلما أساسيا من معالم الالتزام الديني علي مستوي الفرد وعلي مستوي الجماعة والأمة، ولكن الذي أود الإشارة إليه هنا أن الأمم كالأفراد في ضرورة التزامها بالقيم الأخلاقية وهو معلم أساسي من معالم التزامها بالدين، فتتسع دائرة مسئولية الأخلاق في الإسلام لتشمل في عمومها كل مستويات البناء الاجتماعي للأمة، الفرد، الأسرة، الدولة، مؤسسات الدولة ليعمل الجميع تحت مظلة الأوامر الأخلاقية التي هي في صميمها أوامر دينية، ولذلك نجد في القرآن الكريم أوامر دينية تخص الأسرة وتنظم العلاقة

الأسرية علي نحو تربوي، يغرس في نفوس الأبناء كيف يتعاملون مع الوالدين وتضع الأبوين في مواجهة مباشرة مع مسئوليتهما عن غرس المبادئ الأخلاقية في نفوس الأبناء عن طريق القدوة في السلوك وإرشادهم إلي الالتزام بالأوامر الدينية والصبر علي ذلك، والتعود علي تحمل مشقة هذا اللون من التربية حتى يتعود الأبناء علي السلوك الأخلاقي ويصير لهم عادة وطبعا ملازما لهم.

بل أن القرآن الكريم يعلمنا كيف نربي الأولاد علي التعامل مع الوالدين في حياتهم الخاصة، وكيف يحترمون خصوصية الحياة بين الوالدين، فلا يدخلون عليهم في مجالسهم الخاصة بدون استئذان، ولا يقتحمون عليهم غرفات النوم بدون إذن ليتعود الطفل منذ الصغر علي احترام الخصوصيات لكل شخص حتى الوالدين، إن الرقي بمستوي التربية الأخلاقية في داخل الأسرة قد جعله القرآن الكريم مهمة أبوية تتعلق مسئوليتهما بالوالدين يسألان عن إهمالها أو التفريط فيها أمام الله يوم القيامة.

وقد أرشدنا القرآن إلي ذلك في سورة النور، قال تعالي: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (النور: ٥٨-٦٠).

ثم يرشد القرآن إلي نوع من الخلق الرفيع الذى يزرع الحب والمودة بين الأهل والأقارب والأصدقاء يقول تعالي: (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً) (النور: ٦١) كما أكد نفس المعني ما جاء في الحديث الشريف: ألا أدلكم علي شئ إذا فعلتموه تحاببتم. أفشوا السلام بينكم [١].

كما لفت القرآن الكريم أنظارنا إلي فن التربية السليمة التي تبدأ بوضع الضوابط الأخلاقية وغرسها في النفوس منذ الصغر ليتعود النشء عليها خاصة ما يتصل منها بغرائز الجسد والشهوات وأهواء النفوس التي يصعب معالجتها إذا هي استحكمت في توجيه السلوك نحو إشباع الغرائز والخضوع لهوي النفس، لذلك تجد القرآن ينبهنا إلي الأخذ بأسلوب الوقاية أو العلاج الوقائي، وهو خير وسيلة للتربية منذ الصغر. فلكي يتعود المرء علي خلق العفة مثلا تجد الآيات الكريمة تحذر من الوقوع في المقدمات التي تؤذي إلي الرذيلة أو الإقتراب منها فتأمر الآيات بغض البصر الذى هو بريد الزني، قال تعالي: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ

---

[١] انظر الترغيب والترهيب ٢٦٦/٣ ، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه.

بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور: ٣٠-٣١).

إن هذا اللون من العلاج الوقائي يساعد علي بناء المجتمع علي الفضيلة خاصة إذا اهتمت الأسرة بزرع هذه الفضائل في نفوس الأبناء منذ الصغر حتى إذا شب الأطفال عن الطوق لا يجدون مشقة ولا عناء في الالتزام بهذه الفضائل.

وكما نبه القرآن الفرد المسلم إلي ضرورة الالتزام بالأوامر الأخلاقية نبه كذلك الأمم والشعوب إلي أهمية الالتزام بالقيم الأخلاقية، وجعل ذلك الالتزام عنوانا لتحضرها وتماسك بنائها الاجتماعي، وإن غياب القيم الأخلاقية أو تغييبها تحت أي مسمي هو نذير فناء الأمم ومقدمة اندثار حضارتها كما قال الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال آخر:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويا

ومن هنا جاءت تحذيرات القرآن الكريم من سوء العاقبة للأمم التي فرطت في عبادتها الأخلاقية، فانتشر فيها الظلم وغاب العدل، وغابت عنها المساواة وحلت المحسوبية، ووسد فيها الأمر إلي غير أهله، وضاعت الحقوق وضيعت الأمانات وأكلت أموال الناس بالباطل، كل ذلك أو بعضه كفيل بضياع الأمة وزوال الملك قال تعالي:(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) (الكهف: ٥٩). (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) (الحج: ٤٣). (أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (الأعراف: ٤٣). (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (إبراهيم: ١٨). (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل: ١١٢).

إن هذا الربط الواضح بين الأوامر الأخلاقية والعقيدة الإسلامية يدعونا إلي التساؤل حول أحكام الشرع الإسلامي ومستوياتها وما تشمل عليه من معان أخلاقية أساسية في بناء المجتمع وما تعبر عنه من أصول وقواعد، ينبغي الأخذ بها في مناهج التربية في مؤسساتنا التعليمية، كما يدعونا إلي التساؤل أيضا لماذا لم يهتم دارسوا الفقه الإسلامي وأصوله ببيان المعاني الأخلاقية في مسائل الفروع الفقهية مسألة وبيان أثرها في تماسك البناء الاجتماعي والحفاظ عليه؟، إن مقاصد الشريعة الإسلامية تدور في فلك "تحقيق المصالح ودرء المفاسد" وهذه هي مهمة علم الأخلاق الذي يغلب فيه جانب العمل علي النظر، لقد نبهت في السبعينات من القرن العشرين إلي أهمية الربط بين علم الفقه والأصول من جانب وعلم الخلاق في الإسلام من جانب أخر وأن مهمة العلمين واحدة إذ هي تتركز في بيان ما يجوز وما لا يجوز، الحلال والحرام، ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي انطلاقا من الترابط الضروري بين الدين

والأخلاق وهذا يحتاج إلي اهتمام المتخصصين في الفقه إلي إبراز هذه المعاني النبيلة في دراسه الفقه بدلا من دراسة مسائلة بشكلها التقليدي الجاف.

خصائص الأخلاق الإسلامية

لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين أخلاقيات الأمم والشعوب ومنطلقاتها الحضارية، حيث تتجسد في مجموعة القيم الأخلاقية للأمم خصائص حضارتها التي تميزها عن حضارة غيرها من الأمم الأخري، فالحضارة الغربية مثلا يغلب عليها الطابع المادي الذى يتمثل في إشباع حاجة الجسد وتحقيق رغباته، بينما تختفي منها – أو تكاد – مظاهر الاهتمام بالجانب الروحي والعمل علي إشباع حاجاته الفطرية، مما ترتب علي ذلك انفصام في شخصية الفرد، حيث تتحقق للجسم المادي كل رغباته الحسية وأهمل الجانب الروحي تماما وأصبح المرء هناك في حالة فقر روحي وأشبه بالجائع الذي يحتاج إلي ما يسد رمقه أو الظمآن الذي يبحث عن ماء يروي به غلته. فانتشرت بينهم ظواهر الانتحار والإحساس بافتقاد معني الحياة، وضياع قيمة الوجود وغايته واختزلوا الوجود الإنساني كله في الجانب المادي فقط، فلا حياة بعد الموت، وليس هناك غاية وجودية نسعي إليها.

والحضارة الإسلامية جاءت علي النقيض من ذلك تماما، حيث اهتمت بالجانب الروحي والمادي معا، فلم تجعل لأحد الجانبين غلبة علي الآخر، فعرفت للجسم حقوقه وحافظت عليها ولم تهمل الجانب الروحي بل اعترفت به وبأثره في توجيه السلوك الإنساني نحو غاية أخلاقية مطلوبة تتوازن فيها حاجات الجسم والروح معا، ومن هنا كانت الأخلاق الإسلامية صورة حية تجسد الطبيعة الإنسانية في أبعادها المختلفة ما علمناه منها وما لم نعلمه، فتتميز بالواقعية المستمدة من طبيعة الإنسان نفسه التي تجمع بين المادة والروح والتي جمع بينهما القرآن الكريم في صورة تلازمية لا تقبل انفكاك أحد الجانبين عن الأخر، فالقرآن الكريم قد أشار إلي الجانب المادي وأكده كحقيقة واقعية لها أثرها في بناء الإنسان، قال تعالي:

(وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) (نوح: ١٧)، وقال سبحانه: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) (طه: ٥٥) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) (المؤمنون: ١٢).

ولا شك أن هذا الجانب المادي له آثاره ومتطلباته في السلوك الإنساني التي لا يجوز إغفالها.

وفي نفس الوقت نجد القرآن الكريم قد أشار إلي الجانب الروحي الذي يحتاج من الإنسان إلي مراعاته وإشباع حاجاته لأن أثر الجانب الروحي في سلوك الإنسان قد يكون أقوي وأشد أثرا من الجانب المادي، وقد لا يشعر به الإنسان حينا، ولكنه لا يفقد أثره في السلوك وفي خلق التوازن الروحي والنفسي للإنسان.

قال تعالي: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (ص: ٧١) فقد بنيت الآية الكريمة أن الإنسان خلق علي نحو خاص يجمع

بين المادة الطينية والنفخة الإلهية التي صار بها إنسانا مكرما استحق أن تؤمر الملائكة بالسجود له. وهذه الخاصية الإنسانية المكرمة لم تكتمل إلا بالجمع بين هذين الجانبين في شكل متوازن معتدل ليكون السلوك الإنسانى تجسيداً حيا لإنسان متكامل الجوانب سوي الرغبات والمقاصد، وضرورة التوازن بين هذين الجانبين (المادي والروحي) والعمل علي إيجاد التوازن بينهما في سلوك الإنسان قد أضفي علي الأخلاق الإسلامية خصائص ومميزات جعلتها تنفرد بها عن الدراسات الأخلاقية في المذاهب الفلسفية المختلفة، ومن أهم الخصائص التي تتميز لها الأخلاق الإسلامية:

١- أنها تستمد قوة الالتزام بها من قوة الإيمان بالعقيدة الدينية التي جعلت المبادئ الأخلاقية جزءا أساسا من شعائر الدين وأوامره. والرسول صلي الله عليه وسلم قد ربط بين السلوك الأخلاقي وكمال الإيمان ربطا محكما، فجعل صلي الله عليه وسلم التخلق والسير علي مقتضي الأوامر الأخلاقية من كمال الإيمان، ولقد جاءت الأوامر الإلهية لتؤكد هذه المعاني وتجعل منها أمرا شرعيا يكلف به المؤمن ليثاب عليه في الآخرة إذا فعله بنية القربى إلي الله تعالي ويعاقب علي تركه وإهماله. ومن هنا نجد أن المبادئ الأخلاقية الكبرى (العدل – الوفاء – الصدق – الأمانة) وما تفرع عنها من مفردات أخلاقية قد أمر بها الإسلام علي أنها تكليف شرعي ودليل علي صحة الاعتقاد وكمال الإيمان، وأن أي خلل يتطرق إليها بالإهمال أو عدم الالتزام فإن ذلك الخلل ينسحب بالتالي علي صحة الاعتقاد وكمال الإيمان، وإذا كانت هذه المبادئ تمثل قيما أخلاقية في جميع المذاهب الفلسفية قديمها وحديثها فإنها كذلك محل اتفاق بين جميع الأديان السماوية علي أنها أوامر إلهية جاءت بها التوراة وبشر بها الإنجيل وصدقهما القرآن الكريم.

ونجد السنة النبوية المطهرة قد ربطت كذلك ربطا محكما بين مفردات علم الأخلاق وكمال الإيمان بحيث إذا انتفي الالتزام بالسلوك الأخلاقي ينتفي تبعا لذلك كمال الإيمان مما يجعل المؤمن مطالبا شرعا ودينا بتنفيذ كل ما أرشدت إليه مبادئ الأخلاق من منطلق إيماني عقيدي ديني، فضلا عن كونه أمرا أخلاقيا وهى شعب الإيمان التى أشارت إليها الأحاديث الكثيرة.

ولا شك أن السلوك الأخلاقي الذى يستمد قوة الالتزام به من قوة الإيمان بالعقيدة نفسها يكون سلطانه علي الجوارح أقوي وعلي القلب أشد حيث تتحرك الجوارح تبعا لقوة امتلاء القلب بمعاني الإيمان، والإحساس بخشية الله الذى أمر ونهى فتنصاع الجوارح تنفيذا لأوامر الله ونواهيه وتتحد الأوامر الإلهية مع المبادئ الأخلاقية فى الفعل الإنساني ليجمع الإنسان فى سلوكه بين نور الإيمان وكمال الأخلاق تجسيدا لقوله صلى الله عليه وسلم: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وتتوحد غاية الأخلاق فى الإسلام مع مقاصد الشرع وغاياته التى تدور كلها حول تحقيق المصالح ودرء المفاسد للفرد وللجماعة على سواء وقد تكفل بذلك مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى نصت عليه آيات القرآن الكريم وما صح من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتبلغ أهمية هذا المبدأ فى بناء المجتمع درجة قصوى حيث يحتل درجة الفرض الكفائى بين مراتب الأحكام الشرعية بحيث إذا قام به بعض أفراد المجتمع يسقط الإثم

عن الباقين وإذا فرطت الأمة فى القيام به وأهملته فقد يأثم الجميع وتجنى الأمة ثمرة ذلك الإهمال متمثلا فى ضياع القيم الأخلاقية وشيوع الرذيلة، وتفشى اللامبالاة والسلبية التى هى من أخطر أمراض المجتمع البشرى. قال تعالى (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران: ١٠٤)

وقال صلى الله عليه وسلم: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم بعذابكم فتدعون فلا يستجاب لكم) [١].

٢- إن هذه الأخلاق تعتمد فى سلطتها على الرقابة الداخلية الذاتية للفرد فليست هناك رقابة من خارج الفرد على سلوكه الشخصي وإنما هو رقيب بنفسه على نفسه، كما قال تعالى: (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) (الإسراء: ١٤) فهو إذا التزم سلوكا أخلاقيا معينا فينبغي أن يكون ذلك لقناعته الداخلية بأن هذا السلوك هو ما ينبغى فعله إيمانا بصحة المبدأ فى ذاته وليس خوفا من سلطة خارجية تتمثل فى رقابة الشرطة مثلا، أو خوفا من لوم المجتمع له أو طلبا لمنفعة أو تحقيقا لمصلحة. حتى يكون الفعل محققا للمعنى الأخلاقي والديني معا كما قال صلى اله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) [٢] . وتحرير الفعل الأخلاقي من هذه الشوائب التى قد تعلق به تجعله خالصا لوجه الله تعالى فيثاب صاحبه عليه فى الآخرة ويمدح به فى الدنيا، فالرقابة القلبية هى الحارس الأمين على سلوك الفرد فإذا كانت سلطة الضمير حية متيقظة فلا يحتاج معها الفرد إلى رقيب من الخارج ولو ساد هذا المبدأ وسيطر على سلوك أفراد المجتمع كله لصار المجتمع آمنا فى نفسه آمنا على نفسه ولما عانت المجتمعات الإنسانية من ويلات السلوك الإجرامي الذى يدل على غيبة الضمير وتدنى الأخلاق.

٣- إنها أخلاق معيارية تهتم بالبحث فيما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان عكس الأخلاق الوضيعة التى تهتم بالبحث فيما هو واقع فى المجتمع من السلوك الإنساني، غايتها الارتقاء والنهوض بالسلوك الإنساني فهي دائما تحث الإنسان على التحلي بما هو أفضل من القيم والمبادئ وتجعل من الإنسان كائنا مسئولا عن النهوض بنفسه وبمجتمعه سواء كان الفرد حاكما أو محكوما. فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته [٣]. وتتوزع هذه المسئولية لتشمل جوانب الحياة المختلفة، لتجعل من الإنسان حارسا أمينا على مصالح أمته يرعاها ويصونها من منطلق مسئوليته عما استرعاه عليه المجتمع، ولذلك كانت المسئولية الأخلاقية شاملة وعامة لكل أفراد المجتمع – كل بحسب مكانته أو بحسب طاقته – فهناك ما يسمى بأخلاقيات الطبيب، وأخلاقيات المعلم ، وأخلاقيات القائد ... إلخ وأخلاقيات المهنة. وقد عبر

---

[١] ورد الحديث فى الترمذى ، كتاب الحدود ؛ وانظر الترغيب والترهيب ١٦٩/٢.

[٢] متفق عليه ، انظر اللؤلؤ والمرجان ٤١٦/١ حديث رقم (١٢٤٥) ، ورواه البخارى فى كتاب الإيمان.

[٣] انظر الحديث رقم (١١٩٩) اللؤلؤ والمرجان ، متفق عليه.

الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه المعانى كلها فى كلمة جامعة حين قال: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) [1] ، فإن إتقان العمل فى كل المجالات هو الطريق إلى نهضة الأمم وتقدمها ولاشك أن ذلك كله مطلب شرعى وأمر أخلاقى.

أما الأخلاق الوضعية فهى تهتم فقط بالبحث فى العادات والتقاليد الوضعية التى يكون عليها السلوك الإنسانى فى الواقع لنستخرج منها قواعدها وضوابطها السلوكية فهى تهتم بما هو كائن فعلا أما الأخلاق الإسلامية فهى دائما تهتم بما ينبغى أن يكون عليه السلوك، والأخلاق الإسلامية تستمد مثاليتها المعيارية من كونها إلهية المصدر غايتها الارتقاء بالفرد والمجتمع، غايتها السمو الأخلاقى الذى يرقى بالفرد إلى مصاف الملائكة أو أكثر يقدم فيها مبدأ الإيثار على مبدأ الأثرة ومصلحة الأمة مقدمة على مصلحة الفرد والصالح العام مقدم على الصالح الخاص، لتصل فى النهاية إلى مجتمع مثالى تحكمه القيم الأخلاقية وليس المصلحة الشخصية يعيش فيه الضعيف والفقير بجانب القوى والغنى فلا يطغى صاحب جاه أو سلطان على فقير أو ضعيف وعندئذ تتلاحم القلوب وتتوحد المقاصد والغايات ويسود الأمن والأمان فى ربوع المجتمع كله.

٤- أنها تجمع بين النسبية والإطلاق فإن المبادئ الأخلاقية التى تسعى إلى تحقيقها فى الواقع هى مبادئ عامة، مطلقة، كلية – العدل – الصدق – الوفاء – الأمانة. هذه كلها مبادئ مطلقة تتطلبها المجتمعات الإنسانية لتسود فيها حياة مستقرة هادئة تحقق خير الإنسان والجماعة. وهى مبادئ عقلية مثالية معيارية فرضها العقل كقواعد عامة للسلوك الأخلاقي ونزلت بها الأديان السماوية كلها. فصارت أشبه بدستور للسلوك البشرى على مستوى الفرد والجماعة. ومن هنا فهى مبادئ أخلاقية لها صفة الإطلاق والعموم.

أما على مستوى التطبيق العملي فى واقع الحياة البشرية فإنها تستمد نسبيتها من الظروف المحيطة بالفرد، ومن إمكانات الفرد وطاقاته التى يتمتع بها ومن هنا تتفاوت مواقف الأفراد والجماعات عند تطبيق المبدأ حيث يكون نصيب الفرد منه حسب استطاعته وإمكاناته، كما قال تعال: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) البقرة: ٢٨٥) (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) (الطلاق: ٧) وقال سبحانه وتعالى: (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) (النور: ٦١)، وهذا التفاوت النسبي بين الأفراد يمليه الواقع وضرورته وليس هوى الشخص ورغباته، فلا يصح ولا يقبل من الفرد أن يتعلل بعدم الاستطاعة وفقدان الطاقة على الفعل الأخلاقي فى الوقت الذى يملك فيه الطاقة والقدرة لأن ذلك يطعن فى أمانته على نفسه ويمثل خلالا فى رقابته الداخلية على ذاته وسلوكه وينبغي أن يعلم أن رقابته الذاتية تستمد قوتها وفاعليتها من إيمانه برقابة الله تعالى عليه وإيمانه بأن الله يعلم السر وأخفى فإن أي خلل يتسلل إلى رقابته الذاتية فإنه يخدش إيمانه برقابة الله عليه وقد حذرنا القرآن الكريم من الغفلة أو التغافل

---

[1] سنن البيهقى : ١٨٦٧/٤ ، صحيح الجامع للألبانى ، ص ١٨٨٥.

عن هذه الرقابة وأهميتها فى تحقيق المعنى الأخلاقي والديني فى سلوك الرفد وجعل مرتبة الإحسان تجسيدا حيا لمعنى هذه الرقابة الذاتية. قال صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل الذى نزل ليسأل الرسول – ما الإيمان .. ما الإسلام.. ما الإحسان .. فقال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك [١] .

٥- إنها تتصف بالواقعية لأنها تراعى الطبيعة البشرية وما يحيط بها من ظروف وملابسات قد يضطر المرء فيها إلى فعل ما هو غير أخلاقى تحت ضغط الظروف والضرورة وهذه الغاية تنفرد بها الأخلاق الإسلامية عن بقية المذاهب الفلسفية الأخرى، ولذلك كانت القاعدة الفقهية المعروفة (إن الضرورات تبيح المحظورات)، وقال تعالى: (إلا ما اضطررتم إليه)، وفى الحديث الصحيح: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) [٢] وكانت التكاليف الشرعية منوطة بالاستطاعة والقدرة إن هذه الخاصية ترفع عن الإنسان إحساسه بالحرج النفسي إذا اضطر إلى فعل محظور أو ترك واجب تحت ضغط الظروف أو إذا أكره على ذلك وقد تتسع دائرة هذه القاعدة لتشمل فعل الجوارح كلها حتى نطق اللسان بكلمة الكفر، كما حدث فى عصر الرسالة الأولى، فقد أجبر المشركون عمار بن ياسر أن ينطق بكلمة الكفر وهو تحت سياط التعذيب والضرب فقالها مضطرا ومكرها عليها وحزن حزناً شديدا وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فنزل قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ) (النحل: ١٠٦).

لكن اضطرار المرء إلى فعل المحظور بجوارحه ينبغي أن يكون مقرونا بكراهية القلب ونفوره من الفعل لأنه لا سلطان لأحد على القلوب إلا الله وثبات القلب على كراهية المحظور شرعا ونفوره منه دليل على امتلاء القلب بمعاني الإيمان والخوف من الله حتى وإن ارتكبت الجوارح الفعل المحظور اضطراراً.

الأخلاق والطبيعة الإنسانية

وفى الإسلام نجد أن نظرته إلى الطبيعة الإنسانية وخصائصها كانت أكثر شمولا واتساعا من الاتجاهات الفلسفية لأنها جمعت فى نظرتها إلى الإنسان كل الجوانب المادية والروحية وأضافت إليها ضرورة التسامى بهذه الجوانب والتنسيق بينها باعتبار أن الإنسان كل لا يتجزأ فلا ينبغى أن ينظر إليه على أنه تركيب عضوى أو مزيج من مجموعة العناصر الطبيعية فقط كما أنه من الخطأ أن ينظر إلى الإنسان على أنه عقل مجرد من المادة لا صلة له بها، أو أنه روح سماوية تخلصت من شوائب الطبيعة بل راعت فى الإنسان أنه كل متكامل من هذه العناصر جميعها ولابد لكى يستقيم سلوك الإنسان من ضرورة التنسيق بين كل هذه الجوانب حتى يؤدى كل جانب منها وظيفته فى حراسة قانون أخلاقى يهدف الإنسان إلى تحقيقه.

---

[١] حديث جبريل : متفق عليه ؛ اللؤلؤ والمرجان ٩/١ حديث رقم (٥).

[٢] ورد فى البخارى ٩٤/٩ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، مسلم ٩٧٥/٢ كتاب الحجج .

ولقد أكد القرآن على الجانب المادى فى الإنسان ونبه على ذلك فى قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) وقوله: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) (الإنسان: ٢) وقد راعى القرآن أن هذا الجانب المادى فى الإنسان يعتبر أساسا من أسس تكوينه العضوية ولابد له من إشباع هذا الجانب فوضع لذلك نظاما محكما تكفل به علم الفقه وكتب الفروع من معاملات وعبادات وجعل لكل غريزة من الغرائز المادية نظاما أخلاقيا ينبغى سلوكه فى إشباعها وجعل إشباع هذه الجوانب عند توفر القصد والنية عبادة يتقرب بها إلى الله وقد جاء فى الحديث (أن فى نطفة أحدكم صدقة) ولما سئل الرسول: هل يكون فى نطفة أحدنا صدقة يا رسول الله؟ قال: نعم أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه بها وزر ، فكذلك لو وضعها فى حلال فإن له بها أجرا.

وبالإضافة إلى هذا الجانب المادى فهناك جانب آخر روحى يتمثل فى النفس والعقل والروح ولهذا الجانب خصائص معينة وله مقتضيات لابد مراعاتها فى السلوك. وفى الإسلام لا يوجد انفصام بين هذين الجانبين وإنما بينهما صلة قوية وضحها الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله: (أن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب). فالارتباط بين الجانبين المادى والروحى ضرورى فى نظر الإسلام لأن أحدهما محكوم بالآخر وخاضع له إذ لابد أن يتحقق سيطرة الجانب الروحى السماوى على الجانب المادى الأرضى ليستقيم سلوك الإنسان، ومحاولة النظر إلى أى جانب من هذه الجوانب مستقلا عن الآخر محاولة خاطئة محكوم عليها بالفشل مسبقا لأن الإنسان يجمع فى تكوينه بين خصائص مادية وأخرى سماوية ونتج عن المزج بين هذه الخصائص جميعها صفات أخرى ثالثة نشأت من تجمع هذين العنصرين (المادى والروحى) فى الإنسان وهذه الصفات الأخيرة لها أثرها فى مزاج الإنسان وسلوكه ومن الخطأ أن ينظر إلى الإنسان على أنه مجموعة من العناصر المركبة فقط بل علينا فى تفسير سلوكه أن تنظر إليه على أنه شخصية ينبغى أن تتكامل فيها الجوانب المادية والروحية وإن كل جانب منهما ينبغى أن يقوم بمهمته ووظيفته فى حياة الإنسان بانتظام وتنسيق مع بقية الجوانب الأخرى ومن ثم فإن الإنسان لابد أن يتميز بخصائص معينة لا نجدها لدى غيره من الكائنات الأخرى. ولعل هنا موطن الابتلاء الذى تحدث عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ((إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) (الإنسان: ٢).

تهذيب الغرائز:-

ولقد كان الإسلام أكثر الأديان السماوية حفاظا على إيجاد التوازن والتنسيق بين كل ميول الإنسان ورغباته وغرائزه ووضع النظم والمبادئ التى يستطيع بها الإنسان تهذيب غرائزه وتنمية ملكاته وميوله وتنمية الجوانب الخيرة فى طبيعته وترويض الشرير منها. ومن هنا كان الإسلام حريصا على تعدد مصادر الإلزام الخلقى وتنوعها بحسب تنوع الطبائع البشرية واختلاف خصائص هذه الطبائع من شخص لآخر بالإضافة إلى حرصه على إشباع غرائزه وميوله بوسائل مشروعة تحفظ على الإنسان

آدميته وتصون عليه حياته فى إطار سليم، وهناك كثير من النصوص التى تولت كيفية تهذيب النفس وترويضها ببيان الوسائل المشروعة لإشباع الغرائز وتنظيمها مثل كبح جماح النفس وترويضها على الحلم والعفو. قال تعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له أوصنى يا رسول الله. قال: لا تغضب قال أوصنى، قال: لا تغضب. وكررها الرجل ثلاثة: قال له الرسول: لا تغضب. وفى الأثر: ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب [1].

وغريزة التملك وحب المال قد هذبها القرآن وطوعها بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب (ومن يوق شح) (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) (البقرة : ٢٦٠) وتوعد من لا يستطيع مقاومة هذه الغريزة بقوله: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (التوبة: ٣٤) وكتب الأحاديث النبوية مليئة بالنصوص التى ترغب فى الانفاق وتحذر من البخل ولو كان بشق نمرة.

ونزعة الاستعلاء والتكبر والخيلاء حاول القرآن إماتتها ببيان وصايا الأنبياء إلى أبنائهم بعدم التكبر والاستعلاء قال لقمان لابنه: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) (لقمان: ١٧ – ١٨).

وكثيرا ما يردد القرآن هذا النداء على أسماع المسلمين (يا بنى آدم) تذكير لهم بأصلهم ومبدأ نشأتهم بأنهم من تراب فلا يحق لهم أن يتكبروا ويختالوا فى الأرض مرحا.

ومثل غريزة شهوة البطن والفرج فمن حاول إشباعها عن طريق غير مشروع فقد توعده الله بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ومن لم يتيسر له إشباعها بالطريق المشروع فقد بين الإسلام وسائل تنظيمها وترويضها قال عليه السلام: (يا معشر المسلمين. من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنها أغض للبصر وأحفظ للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) [2] إلى غير ذلك من الطباع التى تولى القرآن تطويعها لمبادئ الأخلاق ومعايير السلوك القديم.

ولقد راعى الإسلام أن يقيم قانونه الأخلاقى على أساس قانون الحياة الإنسانية نفسها بدلا من أن يعارضها وجعل لكل مستوى من النماذج البشرية ما يناسبه من مصادر الإلزام الخلقى.

١- وتأتى فى الدرجة الأولى من مصادر الإلزام سلطة الضمير الخلقى الذى ينبع أساسا من وجدان الإنسان وفطرته كمصدر من مصادر التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح ومن ثم تطمئن نفسه إلى السلوك الأخلاقى وتأبى السلوك غير الأخلاقى وبالتالى فإن ذلك يكون دافعا إلى الالتزام بالأول

---

[1] متفق عليه ، أنظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : ٧٠٧/٢ حديث رقم : ١٦٧٦ ، ٢٧٧/٣.

[2] رواه البخارى ومسلم وأبو داود : انظر الترغيب والترهيب ٦٦/٣.

والابتعاد عن الثانى ولقد أشار الرسول إلى ذلك فى قوله: البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر [١] .

٢- ثم يأتى العقل باعتباره مصدرا من مصادر الإلزام الخلقى فى الإسلام والقرآن جعل صفة العقل والتعقل من المعانى التى يحاسب المرء عليها إذا هو لم يخضع لسلطتها أو تمرد على أوامرها. وهذا ما أفاض فيه المعتزلة الحديث؛ ولكن الذى أود الإشارة إليه هنا أن وجدان الإنسان لضميره وإحساسه به وشعوره بأوامره سابق على وجدانه لعقله باعتبار أنهما مصدران من مصادر الإلزام الخلقى وأن كلا منهما خاص بنموذج معين من البشر.

٣- وهناك طراز من الناس ماتت ضمائرهم وكسدت عقولهم فلم ينتفعوا بوجدان العقل والضمير ولم ينفع معهم سلطانهما، وهنا نجد الإسلام يلجأ إلى أسلوب الترغيب والترهيب والتحذير والتنفير كمصدر من مصادر الإلزام بالسلوك الخلقى لأن الترغيب والترهيب من الوسائل التى تثير النفوس وتحرك الضمائر نحو المقصود، ويستعمل القرآن مع هذا النوع من البشر أسلوب التهديد أحيانا. قال سبحانه (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (ق: ١٨).

٤- وهناك نوع من البشر لا تحركهم إلا منافعهم الشخصية فيلجأ الإسلام معهم إلى أسلوب المنفعة باعتباره مصدرا ملزما يليق بهذا النوع من الناس باعتبار أنهم ألفوا اللذات وطبعوا على جلب النافع لها لهذا حرص الإسلام على التشويق فى السلوك الحسن من أجل المكافآت والجزاءات الطيبة وجعل ذلك مناسبا الطبيعة هؤلاء ملزما لهم بالسعى وراء ما ينفعهم ووضع لذلك الإطار الصحيح لجلب هذه المنفعة فقال سبحانه:-

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد: ٧) (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ) (النور: ٥٥) (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) (الأنعام: ١٦٠) إلى غير ذلك من النصوص التى تستميل القلوب إلى العمل الصالح بقصد الحصول على المكافأة والجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة. ولاشك أن هذا أسلوب هام ونافع لكثير من الناس الذين لم يرقوا بأنفسهم إلى مستوى النماذج الأخرى.

٥- وفى مؤخرة القافلة الإنسانية يوجد نوع من البشر لا يرعوون بأى سلطان من العقل والضمير ولا ينفع معهم ترغيب ولا ترهيب فهم خطر على المجتمع كله لأنهم قد استهوتهم شهواتهم فلم يسمعوا قول الحق ولا استجابوا لنداء العقل وهذا النوع من الناس لا يرعوون إلا بسلطان القوة ولا يجدى معه غير عصا السلطان والجماعة وفى مثل هذا الموقف يجعل الإسلام الجماعة كلها مصدرا من مصادر الإلزام للفرد بالسلوك الأخلاقى والجماعة مسئولة عن حماية نفسها من شر هذا النوع ومسئولة أيضا

---

[١]

عن تقويمه وإصلاحه لأن فساد الفرد خطوة أولى نحو فساد الجماعة وما لم تتدارك هذه الخطوة فسيتلوها خطوات أخرى فى هدم الكيان الاجتماعى كله فتنشأ الأمراض الاجتماعية وتنتشر الموبقات ويعم الفساد وهذا ما حرص الإسلام على حماية المجتمع منه.

أهم المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. صحيح البخارى ، مسلم ، كتب السنن.

٣. الترغيب والترهيب للمنذرى.

٤. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.

٥. قضية الخير والشر لدى مفكري الإسلام محمد السيد الجليند ط دار قباء – مصر.

٦. الفلسفة الخلقية – توفيق الطويل – ط نهضة مصر – بالقاهرة.

٧. تهذيب الأخلاق – ابن مسكويه – ط الحلبى بالقاهرة بدون تاريخ.

٨. دستور الأخلاق فى القرآن – د/ محمد عبد الله – دراز – ط الإسكندرية.

٩. السلوك الاجتماعي فى الإسلام – د/ محمد عبد الله دراز – الانجلو – مصر.

١٠. هذا الدين – د/ محمد عبد الله دراز – الانجلو – مصر.

١١. أحياء علوم الدين للغزالي.

١٢. الفلسفة الخلقية لدى مفكري الإسلام – ط – الهانى مصر – محمد السيد الجليند